

رباعيات.. ورباعيات (10) (صلاح جاهين - عمر الخيام - نجيب سرور)

الفصل الثاني: الدراسة المقارنة: ثالثاً: رباعيات نجيب سرور



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2020/02/15

السنة الثانية عشرة - العدد: 4550

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر



الهجوم الدفاعي.. ومرارة المعركة

مقدمة:

وصلتني رباعيات نجيب سرور (2) مثل السوط الصلب المخشوشن المحمي طرفه بالنار، حتى احمرّ جمراً، وقد غُمس في سُمّ ناجع، يلهب ويُدْمِي ويؤقظنا ويفزعنا بتلاحق لا يسمح حتى باستيعاب الألم، ثم يتركنا ليسرى السم في موتنا لعلنا نستيقظ (باعتباره "ناجعا" (3))، أو فلندفع الثمن ونحن نستششق تراب، وعفن وجودنا القبيح القذر .

جمعتُ رباعيات سرور في هذه الجملة أيضاً، التي مثلت عندي بمثابة "الفرض"

يقول سرور من خلال رباعياته:

"أنا وحيد يا أولاد القحبة، وأنتم عميان قساة وكل منكم مشروع خائن، إن لم يكن قد خان بعد وأخص بالذكر اليهود والأغنياء، أولاد الكلب السفاحين، القتل والصمت والجنون هو جزاؤكم العادل، لو أنكم تهاونتم معهم، أو نسيتم ما هو أنتم، وأبو العلاء المعري أحكم كل حكماء العصور، وحتى القبر لن يرحمكم. خذوها الجلدة تلو الجلدة، الرباعية تلو الرباعية، أنا لست محتاراً أصلاً؛ فقضيتي ساطعة كالشمس :إنكم أغنياء سفاحين وأنا وحيد مكلوم أنزف قيحا، ليتناثر قذى في عيونكم."

نجيب سرور في رباعياته أساساً، وربما في حياته لم يعرف الأمان أصلاً، اللهم إلا "تلويحاً عابراً" طمّعه وخانه، فانطلق يضاعف من جرعة التوجس؛ باعتبار أن الهجوم خير وسيلة للدفاع، فامتطى جواد شعره الجامح، وذهب يلهب ظهر العالم بسوط مسموم الطرف، تساعده في استمرار عدوانه أغانى الفخر، وأهازيج الفتونة؛ يحمي بذلك نفسه وحيدا في مواجهة العالم الكاذب اللعين.

وقد خَلَّتْ رباعياته بعكس رباعيات الخيام من الشكوى المباشرة، والتألم الصادق البسيط، إلا أن هذا لا ينفي وجود الألم، بل لعله يؤكد عمق حدته إلى درجة لا تسمح بمواجهته، أو إعلانه، أو مجرد الحديث

أنا لست محتاراً أصلاً؛ فقضيتي ساطعة كالشمس؛ إنكم أغنياء سفاحين وأنا وحيد مكلوم أنزف قيحا، ليتناثر قذى في عيونكم

نجيب سرور في رباعياته أساساً، وربما في حياته لم يعرف الأمان أصلاً، اللهم إلا "تلويحاً عابراً" طمّعه وخانه، فانطلق يضاعف من جرعة التوجس؛ باعتبار أن الهجوم خير وسيلة للدفاع

امتطى جواد شعره الجامح، وذهب يلهب ظهر العالم بسوط مسموم الطرف، تساعده في استمرار عدوانه أغانى الفخر، وأهازيج الفتونة؛ يحمي بذلك نفسه وحيدا في مواجهة العالم الكاذب اللعين

عنه، أو الإشارة إليه إلا مُسقطاً فينا وعلينا، وهو يقف فينا (مثل الخيام) خطيباً، ولكن شتان بين خطيب وخطيب، فمنبر نجيب سرور هو ظهر جواده الجامح، في حين كان الخيام يقف خلف منبره (مقصف خمره أيضا = البار) بائعاً أوهاج أو كؤوس السعادة الذاتية. والحل الذي يطرحه سرور، هو القتل بلا إبطاء، وحتى احتجاجه الانسحابي الداعي إلى الصمت، لم يكن إلا سيفاً بتاراً، يشهره في وجه القدر.

الصمت المتكلم

وعلى الرغم من البداية الشاكرة في جدوى الكلمات، كما وردت في أول رباعية، وهي هي وردت في آخر رباعية:

فليكن صمت جميع الشعراء
قدراً يُشهر في وجه القدر
(1/6)، (4) (525/86)

على الرغم من ذلك فهو لا يسكت، بل يعلم تماماً ماذا يمكن أن تُحدث كلماته من أثر:

إنهم يخشوننا فالشعر سحر
هبة الله لكل الأنبياء
(193/74)

وهو يعلن صراحة ما يدعونا لقراءة الصمت:

اكتبوا الصمت إذن فالصمت حرف
(49/22)

الكلمة والإيقاع

والفرس الجامح الذي يركبه سرور، هو "الكلمة"، والسوط مسموم الطرف، هو "الكلمة"، وفاعلية كلماته تتضاعف، من خلال لُهاث إيقاعه المسموم.

ويكاد القارئ يراه رأى العين، في رباعياته، وقد أمسك بالكلمة، ففكها، وركبها. وصقلها، وسنّها، وأحكم مقودها، ثم غمسها في منقوع المر المسموم، ثم نراه وقد تَلَفَّع بها، ثم راح يجول ويصول وهو يفرقع ويلطمنا بها في كل موقع؛ حتى أوجعنا وأنزفنا، ولعله أيقظنا، ولكنه أبداً لا يدعها (الكلمة) تسكن بين أيدينا خشية أن نمتنها، أو نزيّن بها عقولنا كما اعتدنا.

اعتقدت وأنا أعيش هذه الرباعيات أنه يكاد لا يستطيع قارئ يقظ أن يتلقى كلمات سرور هذه مسترخياً أبداً، ويبدو أن من صفات إبداع سرور أنه يسيطر على الكلمة بعدوانه، ولا يكتفى بأن يستعملها أداة لعدوانه المغير، (قارن الكلمة عند صلاح جاهين). أنظر إليه وهو يفكها ويقطعها ويلمها وينطقها (بتشديد الطاء)

كلماتٌ كلماتٌ كلماتٌ

إنه يونس ياسين يسوع

(40/19)

ثم:

كلماتٌ في اشتقاق وانعكاس

مثلما موسى.. وماس؟.. ثم سام

ثم سمّ.. لنرى النسناس ناس

ويظل الصلّ (5) يسعى في الظلام

(41/19)

لاحظ جرأته على تقسيم كلمة النسناس ولعبه الحرُّ بحرقيّ السين والميم بحيث تراه وهو يفعل ذلك وقد امتلك ناصية الكلمات بل والحروف بإبداعية مخترقة.. (أنظر بعد) وهو يلعب بها وبمقاطعها كما شاء له

الجل الذي يطرحه سرور، هو القتل بلا إبطاء، وحتى احتجاجه الانسحابي الداعي إلى الصمت، لم يكن إلا سيفاً بتاراً، يشهره في وجه القدر.

يكاد القارئ يراه رأى العين، في رباعياته، وقد أمسك بالكلمة، ففكها، وركبها. وصقلها، وسنّها، وأحكم مقودها، ثم غمسها في منقوع المر المسموم، ثم نراه وقد تَلَفَّع بها، ثم راح يجول ويصول وهو يفرقع ويلطمنا بها في كل موقع؛ حتى أوجعنا وأنزفنا، ولعله أيقظنا

لكنه أبداً لا يدعها (الكلمة) تسكن بين أيدينا خشية أن نمتنها، أو نزيّن بها عقولنا كما اعتدنا.

اعتقدت وأنا أعيش هذه الرباعيات أنه يكاد لا يستطيع قارئ يقظ أن يتلقى كلمات سرور هذه مسترخياً أبداً

اللعب، دون أن يفقد القيادة أبداً:

إعكسوا اللص فإن اللص صل
واعكسوا العكس فإن الصل لصل
يا ظلال الكهف ما صل وظل
ها هو الصقر وبالعكس رقص
(42/19)

ومن هذه البداية العدوانية بالكلمات، وعلى الكلمات ذاتها، نستطيع أن نمسك بالخيط الأساس الذي تنتظم من خلاله أغلب، أو كل الرباعيات:

القتل هو الأصل،... والحل هو القتل.

نجيب سرور (نجيب الرباعيات.. وربما نجيب الشخص دون إلزام) لا يعرف الأمان، ذاقه فأثاره واختفى، فأنكره، بل رفضه أصلاً وتاماً:

لا تقولوا “وعلى الأرض السلام”
إنها من غيظ موتانا ثقات
(6/7)
“كُتِبَ القتل علينا والقتال”
(217/84)

فالقتل الأصل، والقتل الحل، هو القانون الأوحده للوجود؛ ذلك لأن المسيرة البشرية تبدأ بالقتل قبل البداية، وتضع الرباط تلو الرباط، حتى إذا نجا الواحد من أولها، لحقه آخرها. فالجنين هو أول ضحايا الاغتتيال مع سبق الإصرار:

فى بطون الناس تُغتال الأجنّة
(9/8)

فإذا نجا بالصدفة أو بالعناد، وولد - لاسمح الله - فإن الموت يولد على رأسه، وكأنه التوأم الملاحق:

يولد الموت على رأس الوليد
(10/9)

فإذا نجا الوليد يوماً أو عاماً أو يزيد، فعليه أن يكفر عن هربه بأن يفعلها هو “نفسه”... وإلا:

ما الذى يبقى سوى أن تنتحر
(10/9)

فإذا حدث أن أبى الواحد منا أن ينتحر، وراح يحاول الحياة ليعيد صياغتها، فقد وقع - كما يقرر سرور - فى شر أعماله، وعليه أن يدفع الثمن، الحصار فالانفجار، والحصار قد يشمل أن يرمى الواحد بالجنون، أو أن يتلفت مذعوراً مدافعاً طول الوقت؛ خشية أن يرمى بالجنون، والانفجار هو أن يجن فعلاً وكأنه قد حقق الموت بصورة أخرى:

ما الذى يلزم كى يُقتل شاعر
إن تأبى فأبى أن ينتحر
الذى يلزم أن يحيا محاصر
واخنقوا البركان حتى ينفجر
(12/9)

إذن لا مفر، ولا خيار:

والذى يُفُلت منا بعد سجن
بعد شنقٍ: سوف يُرمى بالجنون
(18/11)

من صفاته إبداع سرور أنه
يسيطر على الكلمة بعدوانه،
ولا يكتفى بأن يستعملها أداة
لعدوانه المغير

إذا حدث أن أبى الواحد منا
أن ينتحر، وراح يحاول الحياة
ليعيد صياغتها، فقد وقع -
كما يقرر سرور - فى شر
أعماله، وعليه أن يدفع الثمن،
الحصار فالانفجار

الحصار قد يشمل أن يرمى
الواحد بالجنون، أو أن يتلفت
مذعوراً مدافعاً طول الوقت؛
خشية أن يرمى بالجنون،
والانفجار هو أن يجن فعلاً
وأنه قد حقق الموت بصورة
أخرى

أن أظل كل هذه “المقتلة”
(وليس المعركة) هو دمار
داخلي، لعله هو هو خريزة
الموت، وهذه الخريزة التى
قال بها فرويد (ثم يقال إنه
أنكرها فى آخر أيامه، ولكن
المؤكد أن أخلب أتباعه
أنكروها)، هى الوجه السلبي

بعد عرض هذه الملاحقة بالقتل بكل أنواعه، وقبل عرض دعوة سرور إلى القتل بكل صوره، سوف نتتبع جذور المسألة: فسرور يرى، ربما دون قصد، بل لعله يرى برغم قصده كما خطر لى، أن أصل كل هذه "المقتلة" (وليس المعركة) هو دمار داخلى، لعله هو هو غريزة الموت، وهذه الغريزة التى قال بها فرويد (ثم يقال إنه أنكرها فى آخر أيامه، ولكن المؤكد أن أغلب أتباعه أنكروها)، هى الوجه السلبى التحطيمى لغريزة العدوان (6) وسرور لا يقول ولا يعلن موقفه من غريزة الموت هذه، إلا أنها تطل من بين ثناياه قوية واضحة ولكن سرعان ما تختفى وراء أكوام الأشلاء ودخان النتن المتصاعد من عفن الجثث. وقد ظهر سرور متلبسا بالإفصاح عنها مباشرة ذات مرة:

ها هى الرحلة مذ كان الزمان

لكأن الطير يهوى مصرعه

(3/6)

وهو يعطى للموت نفسه إرادة مستقلة تكاد تغلب أصل "إرادة الموت" لدى الإنسان، الموت قدر حين يقرر يقدر؛ أما إذا أراد أحدنا الموت، فالمسألة ليست جاهزة تحت الطلب!! الموت هنا عند سرور ليس مثل موت الخيام؛ بمعنى نهاية الحياة، إنه الموت الداخلى العنيد.

عندما أختار موتى لا أموت

لا يموت المرء إلا مقسرا

(8/8)

فالموت هنا كائن مجسد غريزى، وهو كائن قادر فاعل، وهو الذى له اليد العليا حتى يقهر ويقسر:

عندما يختارنى موتى أموت

أه.. من يختار لى أن أجبرا

(8/8)

وتعبير .. "يختارنى موتى" له دلالة خاصة؛ ليفرق بين تعبير الخيام مثلا عن الموت، (فموتى) بياء المتكلم)، غير ذلك الموت الذى هو على رقاب العباد، وروعة الشطر الثانى، تشير إلى الحتمية الغريزية لهذا الكيان (الموت) الذى تحرك فى الداخل؛ وتلك هى الحقيقة التى التقطها سرور بحدسه، فكأن غريزة الموت قد رجحت كفتها عنده نتيجة "للافتقار" إلى الأمن الأولى؛ وأيضاً نتيجة لهياج" التوجس الأولى وحين حدث ذلك.. حين انفصلت غريزة الموت عن الكيان الكلى، ثم أسقطت فى كل صور القتل، فى مواجهة العالم، أصبحت قدرا لا مفر منه، فإذا بها هى هو، فكأنه "أجبر" على سلوك هذا السبيل التحطيمى نتيجة "لاختيار" أعمق وأخطر وأسبق.

وغريزة الموت هذه، تبدو نقيض غريزة العدوان بمعناه الاقتحامى والدفاعى، وقد ميزت فى بحثى

السابق عن "العدوان والإبداع"، بين العدوانية التحطيمية Destructiveness ، والعدوان

Aggression كخطوة جسورة للأمام، ميزت بينهما باعتبار أن الغريزة إذا انفصلت عن الكل، فإننا نلقاها وقد ارتدت للداخل، أو انطلقت منفصلة إلى الخارج، أو شوّهت المسيرة وعوقت الخطى، أو حدث كل ذلك معا، وهذه هى العدوانية، أما إذا ظلت غريزة العدوان ملتحمة بالكل، فى جدل حى مقتربٍ مقتحمٍ مع الموضوع وهو يتضفر فى كلية مسئولة، فهو الإقدام لا العدوانية، وهو الإسهام فى التفتيح تمهيدا لإعادة التشكيل = "الإبداع".

والعدوان فى رباعيات سرور كما نرى قد انفصل فعلا، فأصبح قوة جامحة واضحة الهدف، أحادية

النظر، أصبح جسما غريبا: نيزكا منفصلا خطيرا، لكنه لحقه بشعره وإبداعه كما نرى.

.....

ونكمل الأسبوع القادم ومازلنا مع نجيب سرور "السر المستحيل، والسر البديل"

العدوان (6) وسرور لا يقول ولا يعلن موقفه من غريزة الموت هذه، إلا أنها تطل من بين ثناياه قوية واضحة ولكن سرعان ما تختفى وراء أكوام الأشلاء ودخان النتن المتصاعد من عفن الجثث

هو يعطى للموت نفسه إرادة مستقلة تكاد تغلب أصل "إرادة الموت" لدى الإنسان، الموت قدر حين يقرر يقدر؛ أما إذا أراد أحدنا الموت، فالمسألة ليست جاهزة تحت الطلب!!

غريزة الموت هذه، تبدو نقيض غريزة العدوان بمعناه الاقتحامى والدفاعى، وقد ميزت فى بحثى السابق عن "العدوان والإبداع"، بين العدوانية التحطيمية Destructiveness ، والعدوان Aggression كخطوة جسورة للأمام

ميزت بينهما باعتبار أن الغريزة إذا انفصلت عن الكل، فإننا نلقاها وقد ارتدت للداخل، أو انطلقت منفصلة

إلى الخارج، أو شوهت المسيرة
وعوقبت الخطى، أو حدث كل
ذلك معاً، وهذه هي
العدوانية

إذا ظلمت عزيزة العدوان
ملتحمة بالكل، في جدل حي
مقتربٍ مقتحمٍ مع الموضوع
وهو يتصفر في كلية مسنولة،
فهو الإقدام لا العدوانية، وهو
الإسهام في التفكيك تمصيحاً
لإمادة التشكيل = "الإبداع"

- [1] المقتطف من كتاب "رباعيات ورباعيات" (الطبعة الأولى 1979، والطبعة الثانية 2017) والكتاب متاح في مكتبة الأنجلو المصرية وفي منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفي مركز الرخاوي: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضاً بموقع المؤلف www.rakhawy.net وهذا هو الرابط.
- [2] في النسخة التي بين يدي: رباعيات نجيب سرور (الطبعة الأولى 1978) منشورات مدبولي، كتب المؤلف في آخر صفحة: السبت الأول من يونيو سنة 1974 مستشفى الدكتور النبوي المهندس للأمراض العقلية. ولا أتصور أنه كتب هذه الرباعيات جميعاً في ذلك المستشفى العقلي، أثناء تلك النوبة. لعله فقط أنهاها أو سؤدها هناك، ثم أعاد تنظيمها وصياغتها فيما بعد. وإن كان لا يمكن نفي الاحتمال الأول احتراماً لشجاعته.
- [3] نجح الشيء نجوعاً: نفع وظهر أثره.
- [4] نهج الترقيم ذاته (رقم الرباعية - شرطة مائلة - رقم الصفحة) نسخة منشورات مدبولي، 1978 (قمت بترقيم الرباعيات شخصياً)
- [5] الصل (بكسر الصاد وتشديدها): الحية من أخبت الحيات
- [6] يحيى الرخاوي "العدوان والإبداع" - مجلة الإنسان والتطور الفصلية - عدد يوليو 1980، (ص 94 - 28)

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD150220.pdf>

*** **

مؤسسة العلوم النفسية العربية

معاً... نذهب أبعد

اشتراكات العضوية بمؤسسة العلوم النفسية العربية للعام 2020

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

اشتراكات عضوية مدفوعة لدعم المؤسسة

اشتراكات العضوية بالدفع الإلكتروني

1 - عضوية "الشريك الفخري الماسي المميز"

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=275&controller=product&id_lang=3

2 - عضوية "الشريك الفخري الماسي"

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=116&controller=product&id_lang=3

3 - عضوية "الشريك الشرفي الذهبي"

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=117&controller=product&id_lang=3

- اشتراكات العضوية بالتحويل البنكي (بعد اختيار نوعية العضوية 1 - 2 - 3)

مرفق رابط مستند الصوية البنكية للمؤسسة

www.arabpsynet.com/APF-IBAN.pdf

- اشتراكات العضوية بالتحويل عن طريق الويسترن يونيون (بعد اختيار نوعية العضوية 1 - 2 - 3)

Dr. Jamel TURKY (Sfax - TUNISIA)

ARABPSYFOUND President